

فواطر وجدانية

صمت الخذلان

3/ وعد أبو سرخان



صمت الخذلان

تأليف الكاتبة وعد أبو سرحان

تصميم الغلاف: شهد عبدالله

ترقيق: رعم فعدان / إيمان عبدالله مهيب

تنسيق داخلي: رايلا اسماعيل

المقدمة:

لا شيء أشدُّ قسوةً من وخص الحُبِّ
المعصَّة، ولا أكثر إيذاءً من علاقاتٍ
تعدُّ أطرافها وشمسها ضيوطها؛
إذ يكون ضحاياها رائحةً فلوبٌ بريئة،
انساق بصدى عاطفتها إلى دروبٍ
لا تليقُ بها، ولا تستحقُّ أن تُرهبَ فيها.

إهداء:

إلى من جعلني أدرك أنّ الوقت بغيابٍ
من نهوى يَكوي رِيطءَ قائل، إلى من اتّوقُ
إليه سَوْقًا رَغْمَ قَلْبِهِ سَوَالَهُ عَمِّي، ونَسِيَانَهُ
أَمْرِي، إلى ذلك الصَّوْتِ الَّذِي أَسْمَعُهُ بِآرَائِنِ
رُصْفِيَةِ مَن خَلْفَ الشُّوْرِ.

« حين يصبح الحبُّ وجمعا »

بعد غروبِ الشمسِ وسكونِ الليلِ، بدأتُ أسمعُ بفقدانها،
وكان قلبي ينبضُ بشدةٍ عندما كنتُ بجانبها، ولكنه الآن
يُعبُّ في الصمتِ.

كأنَّ نمشي يتأيد تحت ضوءِ القمرِ، وكانت كلماتُ الحبِّ
تملأ الأجراسَ.

لكنَّ اليومَ، يبدو أنَّ المسافةَ الجغرافيةَ أصبحتُ حاجزًا لا
يمكنُ اختراقه؛ فلا يمكنني سماعُ صوتهِ الذي كان
يجعلُ قلبي يرقصُ من السعادة، ولا حتى رؤيةَ عينيه
الجميلتين اللتين كانتا تُسعدانِ بالحبِّ والأملِ، ومع ذلك،
ما زال في داخلي أملٌ بأنَّ جمعنا الزمنُ مجردًا، وأنَّني
من القلبِ أنْ نلتقي مرةً أخرى تحت ضوءِ القمرِ، ونعيشَ
أجملَ اللحظاتِ معًا، وحتى ذلك الحين، سأصطفُ بذكرياتنا
الجميلة في قلبي، وأسيرُ على دربِ الحياةِ وحدي.

اكتبْ هذه الكلماتِ بأملٍ أنْ تصلَ إلى قلبه عبر الأمواجِ
الإلكترونية، وأنْ يشعرَ بأني هنا، ومُستأففةٌ للوطنة العذبة.

سأستمر في حبه بصمتٍ؛ فهو ليس فقط صبي،
بل هو الجزء الذي لا يتجزأ من قلبي.

بعد اللوعة التي مررتُ بها، بعد ذلك الحب الذي دام
بصمتٍ فاني، سأكتب إليك بعلمي على أوراقٍ الفارغة،
يا لك من حبيبٍ ابتعد عني، ولا يشعر بما أعاني،

أه لو يعلمُ بحدي استيائي و همتي، لترك الدنيا وجاءَ لأضائي.
ها أنا اليوم أعلنُ حبك لاملأ، وأعترفُ أما هم أن ليس لي
غنى عنك، وأعدك - وليشهد الجميع على ما أقول - أنني لن
أتركك بعد اليوم، ولن أتحلى عنك حتى تتحلَّى روعي عن
جسدي.

قلبي ما زال أسيراً، ولم يحقق يوماً لغيرك، حتى في بُعدك
لا يرى سواك، ولا يشعر إلا بك، ولا يريد غيرك، أرى بك كلَّ
شيءٍ، ولا أرى شيئاً بدونك، قلبي ملكٌ لك وينبض لأجلك،
ويعيش بك، ويموت بك.

بعد انتهائي من تلك الكلمات التي عانقت روعي لسنواتٍ
عديدة، وبعد الحب الذي جعلني أصرقُ بنارِ الشوقِ والهجرِ،
عانتُ أنني لستُ وحدي من أحب، وجلدَ نفسه في
عجيم الحب.

لستُ وهدى من بحث عن توأم روجه في مآهاتِ
وجودية خاسرة، ولطالما وجدتُ نفسي في معادلاتِ
حبٍ أقلُّ ما يقالُ عنها أنَّها غيرُ عادلةٍ، ولطالما حالتِ
الأقدارُ دونَ أنْ يكتملَ الحبُّ، وطلَّ منقوصًا بوجهِ
العائزِ، وفيلةُ الحيلةِ المنهكةِ بكمِّ الحسرانِ، وفداحةِ
الحياتِ المعاقبةِ.

حاولتُ الخروجَ من مأزقي الذي انخسرتُ فيه، وأنْ أصنعَ
سكنًا في وجهِ استحالتي التي رجوتُها متوسطةً أنْ يطاوعني
لأجلِ من أحبُّ، تمردتُ على حكمِ القدرِ، وحاولتُ أنْ أفتحَ كفةَ
في جدارِ قلبي شرفاتِ للحبِّ والفرحِ، لكنَّ الفضلَ أدركني.
أصبتهُ بجمعِ عمي، دونَ أنْ أدري كمَ ظلَّ يترنِّفُ!
ومع ذلك، هناكَ شيءٌ عتقني في الداخلِ، ودفعَ يقفُ على
أطرافِ عيني، يا خسارةَ الحبِّ، ويا فجلةَ الأملِ.
نعم، اعترفُ أنَّ رموعي تترنِّفُ بمجربِ تحببِي أنكَ بعيدٌ عني،
وأعلمُ أنَّني سأبكي كثيرًا كلما شعرتُ بأنَّك لم تعد قريبًا مني.
لا يههمُّ، أعرفُ كلَّ ما سيمرُّ بي من مُعاناةٍ، وسأصبحُ عاجزةً
عن أنْ أكونَ أنا، وسكونُ الأوقاتِ دونكَ صعبةٌ وثقيلةٌ،
وسأصبحُ الوسائدُ خشيئةً أكثرَ من اللازمِ. سيظهرُ لي وجهكَ داخلَ
أكوابِ الشاي، لكن أيضًا لا يههمُّ، ظلُّ هذهِ الكتاباتِ الصغيرةِ ستمرُّ،
أوربما سأقتنعُ نفسي بذلكِ.

لن أضرب شيئاً في هذه المعركة إلا الوهم الذي يحيط بي؛
سأعيش في حقيقة واحدة: أنك لم تعد هنا.
لقد أفضيتك مئتي، ومن حديثي، وثرثرة كلاماتي التي كانت
يوماً تسعدك، أفضيتك من عيالي الذي أصبح يزعجك، وكان
في الأصل مبعاً لك، أفضيتك مئتي ومن وجودي الذي أصبح
تقيلاً عليّ روحك، وكان يوماً مرحباً به.

أعدك أنني لن أكون معك كما كنت من قبل، وسأعيدك غريباً
رغم كونك الأقرب، ولن يكون في قلبي بعدك قرباً لأي شخص،
فقد كنت درسا فاسداً كلّفني قلبي الذي أطفأته بعدما كان
منيراً بأكمله، لم تكن عابراً، ولا متحزباً عادياً، بل كنت مستوطناً
لقلب كان راضياً للحب، فكيف لك أن تكون طبيئاً له وجارداً
في الوقت نفسه؟

أفضيتك مئتي ولم أضع قلبي من ذلك الحب؛ سأتركه للأيام
تفعل به ما تشاء، إلى أن ينتهي كما بدأ من قبل.
صبي لك كان ضفة جميلة، أما الآن فقد أصبح صدمة أليمة.

«بين الغياب والذكريات المحرقة»

في نهاية المطاف، سترك أنك لم تكن تبني عن الحبِّ بحدِّ ذاته، بل عن ذلك الشخص الذي جعلك تشعر بأنك مكسب به وحده، شخص يحسن عضويتك وجنوبك، يضحك على مزاحك البسيط، ويستمتع لمررتك التي لا تتوقف، يفهم مزاجك المتقلب، ويصبر على إعطائك الغارضة، ويكون إلى جانبك دون أن يطلب، شخص يحتويك في كلِّ مرة تضعف فيها، تمنحك الأمان حين يسيطر عليك القلق، ويسندك عندما تشعر بأنك على وشك الانهيار، حينها سترك أنك كنت تبني عن روحك الأخرى، عن مكان تجد فيه ذاتك وسلامك الداخلي، كنت تبني عن وطنك الحقيقي، لكن الحياة أحياناً تقسو. هذا الصِّيف أُصبتُ بنوبة هلع، وراودتني فكرة أنني سأجنُّ، واستحوذت الفكرة على تفكيري، فأصبحت أراقب عقلي وأها سيسي كما لم أفعل من قبل، فائف من أن أبدأ بالهلوسة السمعية والبصرية.

كانت ثوبات الهمع مختلفة من يوم لآخر، وكنت أنهار من
كثرة الأظفار والخوف، أحاول إقناع نفسي بأنّ تلك الأهاسيس
مجرد أوهام، لكن بلا فائدة. شعرت بالانفصال عن نفسي،
وكأنّي أعيش على أكل وجه، بينما عقلي كان يتأخّل في

واقع آخر.

كلّ الطرق تؤدّي إليك، حتّى تلك التي سلكتها لنسيانك، فالنسيان
ليس إلّا قلب صفحة من كتاب العمر، قد يبدو الأمر سهلاً، لكن ما
دمت لا تستطيع اقتلاعها، سحّل شعرت عليها بين فصول حياتك.
مرها أو همتنا انفسنا اتنا نسينا، ومرها حاولنا الهرب، سيعود شعور
آخر ليعيدنا إلى ذكرياتنا، لتقف أمامنا مرّة أخرى، النسيان خدعة،
لا أهد ينسى كيف كان يشعر.

وفي عمرة الحنين، يأتي رحيل مبكّر، وكم بكيت من هجرتك؟
كم من ليلة بقيت إلى شروق الشمس، أهبك، ابكيك، وأنظر باهتة،
أسمع صوتك بالهوس في أملاي دون أن تأمسنني حقيقة وجودك،
وكلّ هذا الألم يرافقه الصمت - أحياناً -، وصمت الشروع حين لا يفهمنا أحد.
أحياناً، يكون الصمت رسالة يسمعها فقط من يشعر بك،

وهين تفيض المعاني وتجف الكلمات، يصبح الصمت سيد الموقف،
يطوى بلا حاجة لأدب، بل إلى قلب يشعر بما لا يقوله الكلام، ومع
كلّ هذا، هناك من يسكنني نفسيًا، ويهزّ قلبي بجرع قد عمّ بالعلاقات
السامة لا تعد لمن أدرك، فمن ير حل تاركًا جرحه، لا يعود إلا لإرضاء
غوره، فلا تسمح بعودته، ولا تكثّر الألم نفسه، وخذها من آخرها:
الوجع الأوّل قدر، والثاني قرار، وقرارك يجب أن يكون حكميًا.
وسط هذا بالله، لا انسى قوّتي.

من أنا؟ أنا التي برضت بصري حين كسرتني الظروف، ابتسمت في
وجه الحياة حين خذلتني، تنهدت حين كان كل شيء يريد عوني للصراخ،
لم يحالفني الحظ يوماً، لكنني رضيت في مواصلة أهلامي رغم
انهيارها، وبعد كل سقوط انرض وأنت نفسي بنفسي، متحديّة الحياة،
والظروف واليأس، محبّة الكلمات القاسية في قلبي، محبّظة بالأشياء
العتيقة التي حضرت لها نفاقاً في زاوية ذاكرتي.
لم يطر أحد في عيني ليعرف كم عرباً تحمّلت، ولم يستمع أحد لصمتي.

وفي مضم كل هذا، يطل كتابك بجاني، مجلس وحيثا في غرفها،
أوراقه مبعثرة، والأفلام صامتة، والكتب تحدد بلا رحمة، كل
صفحة تاربه للفرق في بحر من التفصيل المتشابهة، وصوت عقارب
الساعة يطارد، يذكره بأن الوقت محضي وهو عالٍ بين طر لم يفرمه
ومعادلة تراوغة. عيناه مرهقتان بين رغبته في الهروب، وواجهه الذي لا
يحمل التأجيل، وشعور العجز يتسلل إليها، كأن الحروف تآمر، لكأنه
يشعل بالأمل ويقول: ربّما الغد يحمل معني، وربّما تعب اليوم يصبح
إنجازاً يذكرك، لكأنه الآن فقط يريد أن تتوقف الأرض؛ ليجد لحظة سلام
بعيدا عن صحب داخله.

هكذا، بين الذكرى، والوحدة، والحب، بين الأمل، والصحة، والقوة، نتعلم
أن نحفظ بقلوبنا، نواجه أنفسنا، نعرف من نحن، ونختار بحكمة من
نسمح له بالبقاء في حياتنا، ومن نتركه في الماضي؛ ليصبح مينا
لأنفسنا أوّلا وقبل كل شيء.

الخاصة:

إذا فترت يوماً أن ترحل عن قلب أحببك بصدور، فارحل بكرامة
تليق بتلك المشاعر، ولا تخرج منه قطعة، ولا تتركه ساحة لخزلاين
لا يقنص، لا تحلف وراءك قلباً منتقلاً بالشباب، ولا روحاً تُصارع ذكراك
في كل مرة تحاول أن تلتئم، فمن سخك قلبه، لم يمشك ضعفاً،
بل سأمك شيئاً لا يعطى إلا مرة واحدة، أمانا خالصاً لا يشتري ولا
يعوض، فإياك أن تتحول إلى الكسر بعد أن كنت السند، أو إلى الخيبة
بعد أن كنت الرجاء، ولا تكن العاصفة التي تدمر ما بويه الأيام، ولا
التهاية التي تقتل كل ما كان حياً في داخله.

ارحل إن أردت، لكن ارحل رطيفاً من الأذى، صادقاً هتئى في وراعه،
كما كنت يوماً صادقاً في حضورك، ارحل وكأنتك تحفظ العهد، لا تكن
مخونه في اللوحة الأخيرة.

بعض القلوب، وإن بقيت نبض، تعيش عمرها كله على حافة الانكسار،
وبعض الوداع لا يكون نهاية، بل بداية وجمع لا ينتهي.

وما أجمل أن تغادر حياة بعضنا ونحن نترك أثراً يليق بما كان بيننا!
نور لا يطفئ، ودعاء لا ينقطع، وذكرى تشبه السلام، فلا وجعاً يغادر كل
ليلة، ولا جرح يؤرث للحزن.

